أسبوعيات نائب

الشرط الأوحد لنجاح البداية في تنفيذ خارطة الطريق

التراجع عن إطلاق وصف الإرهاب على الفلسطينيين

وتحديد هدف الخارطة بالتهدئة وليس بالقتل

ناهض منير الريس

النائب عن مدينة غزة

يصل إلى هذه الديار جون وولف مبعوثا من الإدارة الأمريكية لشؤون تنفيذ خارطة الطريق . ويبدأ بمقابلة آريئيل شارون ومعاونيه . وكلمة وولف معناها بالعربية ذئب . ولكل اسم من مسماه نصيب . فعسى أن لا يكون وولف قادما لإقامة سلام الذئاب ومعناه إسكات الفريسة بقوة العض والنهش والخنق والاستنزاف، بعيدا عن قوة الحقيقة والعدالة . والغريب - على كل حال - أن إسرائيل لم تقبل هذا المبعوث الأمريكي نفسه إلا بكل نفس ذائقة الموت لأنها تعد نفسها فوق أي إشراف حتى لو كان من قبل الأمريكيين الذين يطعمونها ويسقونها ويدججونها بالسلاح . ولكننا مع ذلك لا نستطيع أن نتفاءل به مثقال ذرة من التفاؤل . فالولايات المتحدة ومبعوثوها مزودون بموقف منحاز مسبق لإسرائيل ورغباتها ومصالحها . حتى أنهم يشفعون كلامهم في كل حالة لا تتطابق فيها وجهة نظرهم مع وجهة النظر الإسرائيلية بالقول إنهم يفعلون ذلك من أجل مصلحة إسرائيل ، أي أنهم يعرفون مصلحتها خيرا مما يعرفها الإسرائيليون !

نحن لا نثق بالأمريكيين مثلما لا نثق بالإسرائيليين . ولا نفهم لماذا لا يكون المراقبون الذين توكل إليهم مهمة مراقبة تنفيذ خارطة الطريق مراقبين دوليين ، من الجنسيات ذاتها التي تشكلت منها اللجنة الرباعية ، التي يفترض أنها واضعة نص خارطة الطريق ؟! ولماذا رفضت أمريكا على لسان كولن باول اقتراح كوفي أنان مؤخرا بقيام قوات دولية بالفصل بين الفلسطينيين والإسرائيليين ؟ أليس هذا مطلبا قائما منذ سنوات طوال ؟ أم أن هذه الحرب الضروس التي تشنها إسرائيل على المدنيين وعلى المقاومين الفلسطينيين ، وما تثيره من ردود أفعال فلسطينية قوية ، لا تستدعي حتى الآن وجود القوات الدولية ؟

الجواب المباشر على هذا السؤال هو أن إسرائيل رفضت دائما ، منذ توسعها الإقليمي العدواني في الخامس من حزيران ١٩٦٧ ، أي مراقبين دوليين أو قوات دولية أو وسطاء دوليين ، حتى لو كانوا أوروبيين . ودائما وافقت الولايات المتحدة على ما يوافق عليه غلاة المتعصبين ومجرمي الحرب الإسرائيليين ورفضت ما يرفضونه . لذلك تلخصت جهود الوساطة الدولية بين إسرائيل والسلطة الفلسطينية طوال سنوات سابقة في أعمال مبعوث أمريكي رسمي صهيوني هو دينيس روس ، الذي انصب عمله على تصليب موقف المفاوضين الإسرائيليين وتحريضهم على إبداء أقصى درجات التعنت ، حتى انتهت جولاته المكوكية الطويلة إلى طريق مسدود .

نفاق ومهزلة

أما المبعوث الأوروبي ميجيل موراتينوس فجاء متأخرا ، ولم يلق ترحيبا من الإسرائيليين ، ولم تؤد جولاته في الدول العربية وفي مكاتب المسؤولين الفلسطينيين إلى أية نتيجة عملية . والمفهوم عموما أن أوروبا - وإن كانت لها سياساتها الخارجية الخاصة التي لا تتطابق مع سياسات الولايات المتحدة - فإنها تلتزم تلقائيا بجعل أية سياسات من شأنها إحداث تصادم مع مصلحة أمريكية ظاهرة بمثابة حكم مع وقف التنفيذ . ناهيك عن أن لدى أوروبا انحيازها الخاص لإسرائيل . وهو انحياز تاريخي واضح . غير أن انحياز أوروبا لا يبلغ درجة وحدة الحال المتمثلة في الموقف الأمريكي تجاه كل ما يخص إسرائيل وما يعنيها .

واستنادا إلى الولايات المتحدة أدارت إسرائيل ظهرها للأمم المتحدة دائما ، وامتنعت عن إبداء أي تجاوب مع الالتزامات التي فرضها المجتمع الدولي على سائر الدول . فإسرائيل الدولة النووية الأولى في المنطقة منذ خمسينيات القرن الماضي ، رفضت ، وما زالت ترفض ، أي إشراف أو تفتيش من قبل أية هيئة دولية على منشآتها النووية في ديمونا أو في غيرها . وبينما تنشق الحنجرة الأمريكية صراخا واحتجاجا على دخول إيران عصر العلم النووي واستخدام الذرة في الأغراض السلمية ، ولا يكف المبعوثون الإسرائيليون والأمريكيون عن قرع أبواب موسكو لمطالبتها بوقف برنامجها النووي في إيران ، تواصل إسرائيل تكديس المزيد من

الرؤوس النووية التي دخل في حسبان كميتها العددية ومواصفاتها التأثيرية نصيب لكل مدينة عربية أو إسلامية (وليس كل عاصمة وحسب) من المغرب إلى الصين ! وإسرائيل دولة مدينة بوجودها لقرارات الأمم المتحدة . ولكنها رفضت ، وما زالت ترفض تنفيذ قرار عام ١٩٤٧ القاضي بتقسيم فلسطين وقيام دولتين : فلسطينية ويهودية . كما رفضت ، وما زالت ترفض ، القرار رقم ١٩٤ لسنة ١٩٤٨ الذي نص على وجوب عودة اللاجئين الفلسطينيين في أسرع وقت إلى مدنهم وقراهم التي أخرجوا منها .

وربما اعتاد العالم نسيان هذه الحقائق وهذه القرارات الدولية ، وربما حجب النفاق العالمي رؤية الملفات المتراكم بعضها فوق بعض . وربما كان من مظاهر هوان العدالة على الضمير الغربي والأمريكي بصورة خاصة تلك المهزلة التي شهدها العالم في حينها : مهزلة رفض إسرائيل السماح للجنة استقصاء الحقائق المكلفة بالتحقيق في مذابح مخيم جنين أن تدخل إلى فلسطين وتعاين آثار تلك المذابح وذلك الخراب .

وعندما نتكلم عن تجاهل إسرائيل لشأن الأمم المتحدة ، ولقرارات الأمم المتحدة ، ولشخصيات الأمم المتحدة ، ولوفود الأمم المتحدة فإننا نفتح بابا واسعا يحتاج إلى مؤلفات قائمة بذاتها .

اللعب على المكشوف

أما اليوم ، بعد أن باشر الأمريكيون عمليا بتنفيذ المرحلة الأولى من خارطة الطريق ؛ بأسلوبهم الخاص ؛ وبأدواتهم الخاصة ، فلا شك أننا ونحن نعاني أصلا مرارة العيش في أزمة وعنق زجاجة خانق ، أصبحنا في مواجهة أفظع المخاطر التي تتهدد وجودنا ، عبر تهديدها وحدتنا الوطنية وثوابتنا التي بقيت لنا بفضل تضحيات آلاف الشهداء . ولا ضمانة ضد هذه الأخطار إلا بتواجد الشارع الفلسطيني حاضرا إزاء الأحداث المستجدة ، مستعدا للتدخل بما يحفظ علينا الوحدة والثوابت .

ومن الواضح اليوم أن ألعاب الأمريكيين تعتمد أسلوب اللعب على المكشوف مع استبقاء ورقة واحدة فقط من أوراق اللعب مغطاة (أو هم يحسبونها كذلك) . ولذلك نتكلم بدورنا على المكشوف عالمين أن الساحة

الفلسطينية تملك بدورها أوراقها الخفية ، على الرغم من أن الأمريكيين والإسرائيليين يعتقدون أن عيونهم ترى كل شيء وتعرف كل شيء وتنقل إليهم كل شيء . ولا جدال في أن ما يجعل ثمة شيئا خفيا لدى الفلسطينيين ، ويجعل ذلك الشيء الخفي عصيا على عيون الأعداء هو كونه متصلا بالإعجاز الذي نعتقد ، على الرغم من ميلنا للتحليلات المنطقية الملموسة ، أنه شأن إلهي ذو علاقة بالرباط المقدر على الفلسطينيين .

على جماهير الانتفاضة في الشارع الفلسطيني أن تكون حاضرة في الليل والنهار لدى حدوث الدفع الأمريكي الوشيك باتجاه تنفيذ المرحلة الأولى التي تكلمت عنها نصوص الديباجة ونصوص المرحلة الأولى من خارطة الطريق التي تتضمن أقوالا سبق أن أوردناها في مقال سابق مثل القول ((يعلن الفلسطينيون عن وقف تام للعنف والإرهاب ويباشرون بجهود مرئية على الأرض لاعتقال وعرقلة وكبح تخطيط وتنفيذ الأفراد والمجموعات لعمليات عنف ضد الإسرائيليين في كل مكان)) . وكذا القول : ((القيام بعمليات فعالة وثابتة تهدف إلى مواجهة جميع المشاركين في الإرهاب)) . وكذا القول ((إن حل النزاع الفلسطيني الإسرائيلي بإنشاء دولتين يمكن تحقيقه فقط من خلال إنهاء العنف والإرهاب ؛ عندما يكون للشعب الفلسطيني قيادة تتحرك بشكل حاسم ضد الإرهاب ، وراغبة وقادرة على بناء ديمقراطية تطبيقية تستند إلى التسامح والحرية ".

وبالاختصار نلاحظ أن مسألة محاربة السلطة الوطنية الفلسطينية لما يدعى بالمفهوم الأمريكي الإرهاب واردة بعبارات شمولية مشددة في نصوص خارطة الطريق ، تشمل جميع الأزمنة وجميع الأمكنة وجميع الأشخاص وجميع التنظيمات وجميع أساليب القمع ، فهي تستخدم التعابير الآتية : ا ـ التحرك (بشكل حاسم) ضد الإرهاب .ب ـ وأيضا (بشكل فوري وغير مشروط) .ج ـ وأيضا (بجهود مرئية على الأرض لاعتقال ؛ وعرقلة ؛ وكبح تخطيط وتنفيذ الأفراد ؛ والمجموعات ؛ لعمليات عنف ضد الإسرائيليين ، في كل مكان) . د ـ وأيضا (بعمليات فعالة وثابتة .. تهدف إلى مواجهة جميع المشاركين في الإرهاب) . ه ـ وأيضا (تفكيك قدرات البنى التحتية الإرهابية وهذا يشمل الشروع في مصادرة الأسلحة غير

الشرعية) . .و ـ وأيضا المطلوب من الفلسطينيين هو (الأداء الأمني الشامل) .

التنفيذ إذا لم يعجبهم

أما الإسرائيليون فالالتزام المترتب عليهم هو مجرد كلمات .. كلمات تعرب عن استعدادهم لعمل كل ما هو مطلوب لإنشاء دولة فلسطينية ديمقراطية .. وربما يقول بعض الذين لهم مصلحة في تسويق الوهم : إن عمل ما هو مطلوب لإنشاء دولة فلسطينية ليس بالشيء القليل ـ وهم بذلك يخادعون أنفسهم ويحاولون أن يعلموا الناس الجهل في قراءة النصوص ، لأن النص إذ يطلب من الإسرائيليين (الاستعداد) لعمل كل ما هو مطلوب فإنه لا يكلفهم بشيء ملموس فعلا في التو واللحظة ، بل يترك الالتزام في ذمتهم يؤدونه لاحقا حين يعجبهم مستوى التنفيذ الفلسطيني ـ فإذا قالوا إنه لا يعجبهم ، أو قالوا إن الوقت غير ملائم للأداء فمن أين للولايات المتحدة ، في عهد إدارتها الحالية خاصة ، أن تناقشهم الحساب ؟ ألم يصرح دونالد رامسفيلد وزير الدفاع الأمريكي ذات مرة قائلا إن لإسرائيل الحق في كل ما تفعله في الضفة الغربية ؟!

غير أن إحداث الانطباع بالتوازن الزائف في خارطة الطريق يبدو ، أكثر ما يبدو ، في ترتيب التزام فوري على إسرائيل (هو الوحيد الفوري المقترن بها ، ويأتي في نهاية الحديث عن المرحلة الأولى) ، ألا وهو قيام الحكومة الإسرائيلية ـ بشكل فوري ـ بتفكيك المواقع الاستيطانية التي نصبت منذ آذار عام ٢٠٠١ (وكان شارون هو الذي دعا المستجلبين إلى بنائها .

وثمة ملاحظة أخرى توضيحية : حول المواقع الاستيطانية التي تشير الخارطة بتفكيكها ـ فهي (مواقع) وليست (مستوطنات) ـ أي أنها عبارة عن الكارافانات ذاتها المنصوبة في أماكن مختارة ، والتي حاول شارون في الأسبوع الماضي جعلها عروس الحفل الدعائي المزور المخصص للاستهلاك الخارجي ، والأمريكي بشكل خاص .

ويستفاد من النصوص أيضا أن الفلسطينيين لم يتأهلوا بعد ليكونوا (شركاء السلام) وأن الجهود يجب أن تنصرف وتتركز قبل كل شيء على تأهيلهم عبر استيلاد قيادة على المزاج الإسرائيلي ـ الأمريكي .

من الواضح أن خارطة الطريق تقوم إجمالا على تخيل عدم وجود أحد له إرادة أو وزن في الساحة الفلسطينية خلاف الإسرائيليين ، والبوليس ، والأمريكيين ، والمقابر ، وبعض النظارة !! فهؤلاء هم العناصر الفاعلة أما بقية خلق الله فهي عناصر منفعلة ومفعول بها .

ولكي نضع النقاط على الحروف بدورنا فإننا نقول ما يلي ، (ونشعر أن هذا الذي نقوله يعبر عن رأي قطاع عريض من الناس العاديين) :

من يخون نفسه ؟!

أولا ـ يود الناس أن يخرجوا من هذه الضائقة التي يعيشونها في الأراضي الفلسطينية المستهدفة يوميا والمحاصرة والمختنقة والمجوعة . ومن هنا فهم مع افتراض المحافظة على الثوابت يتمنون للوزارة الراهنة النجاح وتحقيق إنجاز ملموس يفتح لهم أبواب الرزق والحياة الطبيعية ، على الرغم من عدم شعبية هذه الوزارة ورئيسها السيد محمود عباس . ولكن ذلك رهن ـ كما قلنا ـ بعدم التفريط في الثوابت . ويبدو أن الأمريكيين يفهمون أن التوسعة المالية يمكن أن تشتري أشياء كثيرة ، بضمنها الثوابت نفسها . وهذا وهم من أوهام الأمريكيين المعتادة ، التي توقعهم دائما في الأحكام الخاطئة الجائرة .

ثانيا ـ قد لا يكون السواد الأعظم من الناس مؤطرا في صفوف أطر المقاومة وفصائلها ، ولكن الفصائل المقاومة تتمتع بالسلطان الأدبي المطلق ، وليس في وسع المخالفين أن يتجاسروا على الظهور أمام الناس أو إبداء الآراء الحمائمية . ويرجع هذا إلى أن تركيب الضمير الوطني الفلسطيني تاريخيا هو التركيب الذي يحتفظ بذكرى نكبة فلسطين وبالرابطة مع الوطن التي زادها قوة على قوتها كونها مقموعة بالقوة . فأي فلسطيني يتنصل من حقيقة النكبة والهجرة واللجوء والأمل بالعودة إنما يخون نفسه وتركيبته الصميمية . والإسرائيليون الذين يجيزون لأنفسهم ، وهم خزر لا تربطهم

بالأرض إلا كلمات من التوراة ، أن يدعوا لأنفسهم انتماء لهذا الوطن ، يتناقضون مع البداهة والحقيقة والتاريخ حين ينكرون حق الفلسطينيين في فلسطينهم .

لم يكونوا البادئين ..

ثالثا ـ لا أحد من الفلسطينيين يوافق على الرغبة الإسرائيلية ـ الأمريكية الآثمة بتصفية حماس والجهاد وكتائب الأقصى والمنظمات التي يثابر المسؤولون الأمريكيون دون ملل على اتهامها بتهمة الإرهاب ، فالأمريكيون يجهلون حتما بسبب نظرتهم السطحية إلى العالم تركيبة المجتمع العربي الفلسطيني ، هذا المجتمع المترابط بحكم وحدة نسيجه النادر وبحكم طابعه العشائري وبحكم غلبة الطابع البلدي الصغير وليس طابع المدن الكبرى على سكن سكانه . وقد ساهمت النكبات والمشكلات العويصة وأزمنة الضائقة في ازدياد علائقه تقاربا والتصاقا . والأهم من ذلك في الوقت الراهن أن الجميع ـ فيما عدا قلة من المحترفين السياسيين ـ مقتنعون أن حماس والجهاد وكتائب الأقصى لم يكونوا البادئين بتعكير صفو الحياة ، بل هم قادة إسرائيل المتطرفون اليمينيون بشهادة الجمهرات الإسرائيلية نفسها . وتعتقد الأغلبية أن الاستشهاديين ومناضلي المقاومة هم الذين يحفظون كرامة المجموع ، بل وإن لغتهم هي الوحيدة التي يفهمها شارون . ويقر المجموع مع ذلك أن هذه البطولات المشرفة والغالية لن تجلب نصرا ولن تحقق نتيجة سياسية ملموسة ، وأن من العسير تحملها . والمجموع مشبع بالاعتقاد أن مناضلي المقاومة هم الأصدق والأبعد عن الفساد . أما القلة المحترفة فتعتقد ـ على العكس ـ إن على المناضلين الفلسطينيين أن يصمتوا ولا يثيروا ثائرة شارون الذي يتمنى استمرار الحرب لأنها فرصته ليلعب في ملعبه ويكسب معركة الترحيل والقتل والمذابح . ولكن ، كما إن الأغلبية التي تقودها منظمات المقاومة تقر بعدم وجود أفق منظور للمقاومة فإن القلة المحترفة تقر بدورها أن اليمين الإسرائيلي ليس مضمونا ، وإنه ربما يستمر في اعتداءاته بعد توقف المقاومة . وهم ـ مع تعويلهم على الأمريكيين بافتراض أن الأمريكيين راغبون في التهدئة ـ فإنهم لا يعتقدون أن الأمريكيين

مضمونون بدورهم أو إن تغير الإدارات والرؤساء يدع فرصة للاعتماد على موقف أمريكي ثابت .

رابعا ـ سيواجه أي شخص أو سلطة تقدم على تحدي المجموع شارعا موحدا بشكل لم يسبق له مثيل . والفرصة الوحيدة لنجاح أية تسوية ، مؤقتة أو دائمة ، هي تراجع الأمريكيين عن وصف منظمات المقاومة بالإرهاب ، وإلغاؤهم المطالبات بالاعتقال والقتل وتدمير البنى التحتية وما إلى ذلك ..

فإذا كانت الأطراف التي تواجه الفلسطينيين بالعداء تريد التهدئة حقا ، ووقف العنف حقا فإن الوسيلة إلى ذلك واضحة ، والفرصة متاحة ، وما من قائد في أي تنظيم إلا مستعد لإبداء المرونة الفائقة (ونحن نعني هذه الكلمة) . فضغط القوة والحصار والتجويع ملموس . وحسابات ميزان القوى تجعل الميل إلى تسوية مؤقتة مرجحا . والفلسطينيون هم الأكثر مكابدة . ولكنهم يعلمون أيضا أن عدوهم غير مرتاح ويعلمون أنهم أصبر منه . ومزاج القادة كمزاج الناس العاديين مستعد للتذرع بالمرحلية . وليس هناك عدميون قطعيون في الصفوف .

ولكن الأمر يختلف جذريا إذا كان المراد هو تصفية فريق من الفلسطينيين عن طريق عزلهم أولا ومحاصرتهم واصطيادهم . فعلى الأمريكيين أن يفهموا أن الشعب العربي الفلسطيني واستشهادييه في الطليعة ليسوا إرهابيين بأي وجه من الوجوه . وعلى الإسرائيليين أن يفهموا ـ إذا لم يكونوا قد فهموا بعد ـ أن اليهود ليسوا الوحيدين الذين بوسعهم اجتراح مسادا هائلة ، من شأنها أن تضع إسرائيل مستقبلا في ظروف مسادا أخرى ، على يد أجيال عربية لا ترى لنفسها رسالة في الحياة أجدر من رسالة الثأر للفلسطينيين .

- أطلقت إسرائيل طاقة الغل والحقد الظاهرة في أعمال جنودها .. في النسف والتخريب والتدمير والقتل والضرب (كم مرة مات المضروب

بين يدي معذبيه ؟) وهي طاقة موجهة بواسطة تعبئة وتثقيف معين . وهذه الطاقة وهذه التعبئة والتثقيف أنتجت الإرهاب الأمريكي في العراق .. في القلوعية .. في تكريت .. في الفالوجة ..

 الألاعيب طابع المرحلة .